تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية

منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الخامس الهجرى

٢٩٧ - ٤٤٧هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦م

دكتـــور

بدر عبد الرحمن محمد

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

بكلية آداب بنها

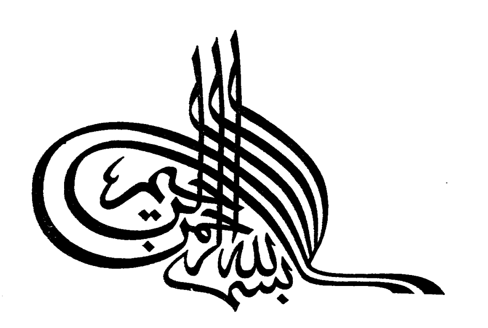
الطبعة الأولى

١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

الناشـــر

مكتبـــة الأنجلو المصـــرية

١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة



تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية
منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب
حتى منتصف القرن الخامس الهجرى
٢٩٧ - ٤٤٧هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦م

- استيلاء الفاطميين على صقلية ومناهضتهم للنفوذ البيزنطى فى الشمال الأفريقى .
- التدخل البيزنطى فى الشام قبيل انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر .
- سياسة الفاطميين تجاه البيزنطيين منذ انتقالهم إلى مصر حتى عهد المستنصر بالله الفاطمى .
- فيضان نهر النيل وأثره على الإنتاج الزراعى فى مصر فى العصر الفاطمى الأول .
- القاضى أبو عبد الله القضاعى رسول المستنصر .
- أوضاع الدولة البيزنطية فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)
- فشل المباحثات الفاطمية البيزنطية .

تطور العلاقات الفاطمية البيزنطية
منذ قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب
حتى منتصف القرن الخامس الهجرى
٢٩٧ - ٤٤٧هـ / ٩٠٩ - ١٠٥٦م

استيلاء الفاطميين على صقلية ومناهضتهم النفوذ البيزنطى فى الشمال الأفريقى :

أصبحت جزيرة صقلية منذ أن تيسر للمسلمين فتحها فى مستهل القرن الثالث الهجرىولاية يتناوب حكمها ولاة من قبل أمراء الأغالبة، واستمر الحال على ذلك إلى أن زحف أبو عبد الله الشيعى - داعى الفاطمين فى بلاد المغرب على أفريقية ، وتمكن من الاستيلاء على كثير من مدنها سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧ . ٩٠٨م ثم التقت قواته بأصحاب زيادة الله الثالث(١) آخر أمراء الأغالبة (٢٩٠ - ٢٩٦هـ / ٩٠٣ - ٩٠٩م) فى جمادى الأخرة سنة ٢٩٦هـ / فبراير - مارس ٩٠٩م فأوقعت به الهزيمة ، واضطر هذا الأمير إلى الرحيل عن أفريقية

---

(١) أبو مضر زيادة الله بن أبى العباس بن عبد الله والى صقلية من قبل أبيه أبى العباس والذى عزله عن صقلية لما اتصل به عكوفه على اللهو وإدمانه شرب الخمر وولى محمد بن السرقوس .

ابن عذارى : البيان المغرب جـ١ ص١٢٨ . نشر دوزى . الجزء الأول ليدن ١٩٤٨ .

بدر عبد الرحمن محمد : الأغالبة والأدراسة فى بلاد المغرب ص٢٦ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.

والفرار إلى مصر(١) وفي مستهل رجب من هذه السنة دخل أبو عبد الله الشيعى رقادة ونزل ببعض قصورها(٢) .

لما بلغ أهل صقلية ما أحرزه أبو عبد الله الشيعى من نصر على الأغالبة . ثاروا على واليهم السنى الحسن بن رباح ، وولوا بدله على ابن أبى الفوارس سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م وكتبوا إلى داعى الفاطميين يطلبون منه أن يقرهم على ما فعلوا فأجاب طلبهم(٣) غير أن عبيد الله المهدى(*) - أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب - ما لبث أن عزل هذا الوالى ، وعين الحسن بن محمد بن خنزير الكتامى محله سنة ٢٩٧هـ / ٩٠٩ - ٩١٠م لكنه لم يستمر طويلاً فى الولاية فقد ثار به السنيون من أهل صقلية لإساءته معاملتهم

---

(١) كان والى مصر فى ذلك الوقت عيسى النوشرى الذى أراد منعه من دخول مصر إلا بأمر الخليفة العباس، إلا أن زيادة الله تمكن من عبور الجسر إلى الجيزة ليلاً .
ابن الأثير : الكامل جـ٦ ص١٢٤ . دار الكتاب العربى بيروت - لبنان ، الداعى إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطمين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ص١٣٦ تحقيق محمد اليعلاوى دار الغرب الإسلامى بيروت - لبنان ط١ ١٩٨٥م .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص٨٦ - ٨٧ تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٤٨م ، إدريس بن عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص١٣٧ - ١٣٨ .

(٣) انظر أمارى : المكتبة الصقلية جـ١ ص٤٣٤ ، محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٣٢ ، دار الفكر العربى ١٩٧٦م .

(*) المهدى بالله أبو محمد عبد الله بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل جعفر الصادق ولد سنة ستين ومائتين يوم الأثنين الثانى عشر من شهر شوال وقبل مولده فى سنة تسع وخمسين ومائتين بمدينة عسكر مكرم نجوزستان: الداعى إدريس : تاريخ الخلفاء الفاطميين ص١٤٣ .

وحبسوه(١) فولى عبيد الله المهدى مكانه على بن عمر البلوى – ولم يكن أقل تعسفاً من سلفه ، فخرج أهل الجزيرة على طاعته – وبخاصة العناصر العربية التى ساءها أن يولى عليهم الفاطميون والياً من البربر .. ووقع اختيار زعمائهم سنة ٣٠٠هـ/٩١٢-٩١٣ على أحمد قرعب(٢) – وكان عربيًا – غير أن هذا الوالى لم تطل ولايته، فقد ثار به الجند بسبب طموحه إلى تدعيم نفوذه بصقلية ، ولم يلبث أن انحرف عن الفاطميين وأعلن ولاءه للمقتدر العباسى (٢٩٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) فأقام له الخطبة بدلاً من عبيد الله المهدى ، ولم يكتف بذلك ، بل أنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب، واستطاع فى بادئ الأمر أن يوقع الهزيمة بالأسطول الفاطمى عند ساحل أفريقية ، لكن الفاطميين سرعان ما ضاعفوا جهدهم فى إعداد أسطولهم، وأحلوا الهزيمة بقوات ابن قرعب حين شرعت فى مهاجمة أفريقية، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى المهدى حيث قتل(٣) وبذلك استعاد الفاطميون سيادتهم على جزيرة صقلية.

ويذكر الداعى أدريس عماد الدين(٤) أن عبيد الله المهدى أخرج لغزو الروم جعفر بن محمد بن عبيد فى جيش عظيم فسار إلى صقلية وخرج منها فى أسطول كبير فنفذ فى أول يوم من سنة أثنتى عشر وثلاثمائة فغزا

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص٢٠٧ بولاق ١٢٨٤هـ ، الداعى إدريس تاريخ الخلفاء الفاطميين ص١٨٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ٨ ص٢٣ .

(٣) ابن خلدون : جـ٤ ص٢٠٧ ، حسن إبراهيم حسن ، طه أحمد شرف كتاب عبيد الله المهدى ص٢٠١ – ٢٠٢ .

(٤) تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار ص ٢١٤ تحقيق / محمد اليعلاوى دار الغرب الإسلامى ١٩٨٥ م .

النصرانية وجاوز العدوة الأخرى إلى بلد الروم فأفتتح مدنًا كثيرة أكثرها بالسيف عنوة ، وسبى سبيًا كثير قيل أنه بلغ أحد عشر ألف ووافى بهم إلى المهدى بالله وكان وصوله بهم إلى المهدية لإحدى عشر ليلة خلت من جمادى الأخرى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة .

ويذكر(١) أنه بعد وفاة المهدي بالله " أخرج أمير المؤمنين القائم بأمر الله، يعقوب بن إسحاق التميمى لغزو الروم فخرج يعقوب من المهدية يوم الأحد .. لست ليالى خلون من شهر رجب من سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (يوليه ٩٣٤م) فى عشرين مركبًا فغزوا الروم من جهة الأندلس ووافى فى طريقه مراكب الروم وفيها تجاراتهم فأخذها وأسر من فيها وتمادى فى السير إلى بلد الروم فنزل على مدينة منيعة هنالك تعرف بـ " جنوة " فقاتل من بها قتالاً شديداً فامتنعوا منه بسور المدينة فمازال يقاتلهم حتى ملك عليهم سور المدينة فقاتلوه فى أزقة المدينة فرزقه الله النصر عليهم... فملك المدينة وجميع ما فيها وقتل المقاتلة من النصارى والمشركين وسبى ذراريهم وغنم جميع ما فى المدينة من البذر والحرير والكتان وغير ذلك ، ثم أضرمها بالنيران وجميع كنائسها وقصورها وبقية امتعتها مما ثقل حمله وتسامع به الروم فجاؤوه من كل ناحية وقاتلوه فمنحه الله النصر عليهم فقتلهم قتلاً ذريعاً مبرحاً وعاد يعقوب ظافراً منصوراً..فوافى ساحل المهدية بجميع من كان معه..لأربع بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة (أغسطس ٩٣٥م) وأخرج السبى وزين الأسطول .. وكان السبى الذين جاء بهم ثمانية آلاف نفس " .

كان الفاطميون يحرصون على الاحتفاظ بسيادتهم على هذه الجزيرة لاتخاذها قاعدة لأسطولهم فى البحر المتوسط ، لصد الحملات التى يوجهها

---

(١) الداعى أدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

الروم نحو أفريقية(١) ، ومن ثم استمروا فى إرسال ولاتهم إليها حتى قامت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد(٢) ، فلما قضى على هذه الثورة عين المنصور الفاطمى(٣) (٣٣٤ - ٣٤١هـ / ٩٤٥ - ٩٥٢م) الحسن بن على الكلبى والياً على صقلية سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٧ - ٩٤٨م وفى عهده تفاقم النزاع بينه وبين مسيحى صقلية الذين لجأوا إلى قسطنطين السابع(٤) (٩١٣ - ٩٥٩م /

(١) جمال سرور : سياسة الفاطميين ص٢٣٣ .

(٢) هو أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد من قبيلة يفرن الزناتية ، اشتغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية فى مدينة نقيوس من مدن قسطيلية الكبار . أخذ يدعو تكفير الشيعة والخروج على سلطان الفاطميين الذين أنحرفوا عن مبادئ الإسلام ، ثم اتجه فى دعوته منذ سنة ٣١٦هـ إلى تغيير المنكر ، فلما توفى عبيد الله المهدى خرج من نقيوس ورحل إلى جبل أوراس وانضم إليه عدد كبير من البربر الساخطين على الحكم الفاطمى وقد استغرقت ثورته عشرون سنة انتهت بوفاته سنة ٣٣٦هـ فأمر المنصور الفاطمى بسلخ جلده وحشوه تبنا ، انظر الداعى إدريس عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطمين ص٢٦٤ - ٤٥٢ .، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ص٥٣٦ - ٥٤٥ مؤسسة شباب الجامعة أسكندرية :

(٣) إسماعيل أبو طاهر .

(٤) عندما توفى ليو السادس سنة ٩١٢م / ٢٩٩ - ٣٠٠هـ خلفه وحيده قسطنطين السابع، الذى كان طفلاً فى الخامسة من عمره ، وكانت السلطة الفعلية بيد عم قسطنطين إسكندر (٩١٢ - ٩١٣م / ٢٩٩ - ٣٠١هـ) الذى لم يلبث أن توفى بعد أن استثار عداء البلغار بسبب قطعه الجزية السنوية التى كان على الدولة البيزنطية أن تدفعها بمقتضى اتفاقية ٨٩٦م / ٢٨٣م هـ .

Ostrogrsky : Hisory of the Byzantine state. P. 231. (Oxford 1956)

سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ١ ص٤٢٠ مكتبة الأنجلو المصرية ط٤ ١٩٦٦م .

٣٠١ – ٣٤٨هـ) إمبراطور الدولة البيزنطية(١) لنجدتهم ، فلبى طلبهم وأنفذ الهزيمة بالجيش البيزنطى ، وأضطر الإمبراطور إلى طلب الصلح(٢) .

على أن الإمبراطور البيزنطى(٣) لم يحترم شروط الصلح الذى عقده مع الحسن الكلبى ، وأرسل إلى صقلية سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م حملة تمكنت من فتح بعض مدنها ، لكن الروم لم يتمتعوا بثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها فى صقلية وانسحبوا إلى قلورية(٤) Calabria

---

(١) لم ينفرد قسطنطين بالحكم إلا سنة ٩٤٥ / ٣٣٣ – ٣٣٤هـ وهو فى الأربعين من عمره .

Tout (T. F.) : The Empire and the papacy. P. P. 154 - 155 (London 1924) .

(٢) ابن خلدون : جـ٤ ص٢٠٩ ، إدريس بن عماد الدين : تاريخ الخلفاء الفاطمين ص٤٩٨ .

(٣) لم يكن قسطنطين السابع خيرًا من أبيه ليو السادس الذى لقب بالحكيم أو الفيلسوف ، وله فى التنظيم العسكرى ، إذ انصرف قسطنطين السابع للأدب ورسم الصور وتخطيط الكنائس ، فضلاً عن الكتب التى صنفها فى مختلف العلوم والفنون كالزراعة والتاريخ والجغرافية والسياسة وغيرها .

Diehl (C.), Marcais (G.) : Le Mond Oriental de 395 a 1081 (Hist, du Moyen Age tome 3). P. 446 .

(٤) انظر كتاب المعز لدين الله ص٥٣ .

التدخل البيزنطي في بلاد الشام قبيل انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر:

بعد شهور قليلة من أوائل عهد نقفور(١) فوقاس(٢) (٩٦٣ - ٩٦٩م/ ٣٥٢ - ٣٥٨) بدأت المرحلة الأولى من تدخل البيزنطيين فى الشرق وفيها تركزت حروبه فى إقليم كليكيا . وأخذت قواته تخرب الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن الرئيسية بهذه النواحى مثل المصيصة ، وأذنة وطرسوس . ولم يكن هذا التخريب لمجرد التنكيل بالمسلمين والانتقام منهم ، بل كان جزءاً من خطة مرسومة سار عليها البيزنطيون فى محاربة المسلمين فقد أتبعوا سياسة تخريب وحرق الأراضى الزراعية المحيطة بالمدن والقرى التى يقصدونها وأسر العاملين بها وأخذ مواشيها ، كما كانوا يخرجون وقت الحصاد ويحرقون الغلات هادفين لإضعاف تموين البلاد التى يريدون

(١) عندما توفى قسطنطين السابع ٩٥٩م / ٣٤٨هـ خلفه ابنه الإمبراطور رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣م / ٣٤٨ - ٣٥٢هـ) الذى أرسل قائده نقفور فوقاس سنة ٩٦٠م / ٣٤٩هـ لاسترداد جزيرة كريت من المسلمين فنجح نقفور فى مهمته مما أعطى الإمبراطور مركزا استراتيجيًا فى البحر المتوسط ، وبعد ذلك اتبع نقفور انتصاره بمهاجمة الحمدانيين والاستيلاء على بعض المعاقل المهمة فى قيلقية .

Vasiliev (A.A.) Histoire de l'Empire Byzantine Tom, I. P. P. 407 - 408 (Paris 1932) .

(٢) توفى رومانوس سنة ٩٦٣م / ٣٥٢هـ تاركاً ولديه باسل الثانى (٩٦٣ - ١٠٢٥م/ ٣٥٢ - ٤١٦هـ) وقسطنطين الثامن (٩٦٣ - ١٠٢٨م / ٣٥٢ - ٤١٩هـ) تحت وصاية أمهما ثيوفانو ونتيجة للانتصارات التى أحرزها نقفور فوقاس فقد تمكن من فرض نفسه شريكاً لهذين الولدين فى حكم الإمبراطورية وبخاصة بعد أن تزوج من أمهما ثيوفانو . وقد ظل يحكم الإمبراطورية ست سنوات (٩٦٣ - ٩٦٩م / ٣٥٢ - ٣٥٩هـ) باسم الولدين القاصرين . ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ١ ص١٤٤ - ص١٤٥ .

Diehl, Marcais. Op. cit. P. P. 467 - 468 .

الاستيلاء عليها حتى تضطر فى النهاية إلى التسليم ، وكان ذلك عاملاً هاماً فى نجاح الهجوم البيزنطى . وفى يوليو سنة ٩٦٥م / رجب ٣٥٤هـ تمكن نقفور من جنى ثمار مجهوداته . فإن أهالى المصيصة وطرسوس أصبحوا يعانون من قلة المؤن وارتفاع الأسعار(١) ، مما أعان نقفور على مهاجمة المصيصة التى لم تستطيع الصمود أمامه وفتحها عنوة وسمح بنهب المدينة ، كما قتل وأسر كثيرين من أهلها(٢) .

وكان الهدف التالى لنقفور هو مدينة طرسوس التى كانت رباطاً هاماً للإسلام ، ومن أهم معاقله الشمالية ، التى لعبت دوراً كبيراً فى الصراع بينه وبين بيزنطة ، كما أنها كانت فى حالة لا تمكنها من مواصلة المقاومة(٣) .

ولا ريب أن مصير المصيصة وما لحق بأهلها على أيدى البيزنطيين ، حملهم على تسليم مدينتهم لنقفور الذى أمنهم على أنفسهم ، وتم ذلك فى

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ٧ ص١٣ – ١٤ دار الكتاب العربى – بيروت .

(٢) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص١٤٠ – ١٤١ الهيئة المصرية العامة للكتاب الأسكندرية ١٩٧٧م .

(٣) عمر توفيق المرجع ص١٤١ .

ذلك أن إمكانيات طرسوس كانت محدودة وكان المدافعون عنها يتوقعون المساعدة من سيف الدولة الحمدانى (أمير حلب) الذى كان مشغولاً بنجدة أخيه ناصر الدولة الحمدانى أمير الموصل فى صراعه ضد معز الدولة أمير بنى بويه والمتغلب على العراق والخلافة العباسية والذى كان يهدف إلى إرغام ناصر الدولة ابن حمدان على الإذعان لسطان البويهيين .

راجع : بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ظهور السلاجقة ص٥٨ وما بعدها مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٨٩م .

أغسطس سنة ٩٦٥م / شعبان ٣٥٤هـ ، وكانت معاملة أهالى طرسوس أفضل من معاملته لأهالى المصيصة ، إذا سمح لكل من أراد الهجرة بالخروج من المدينة ، وأن يحمل من ماله ما يستطيع ، فقد عمل نقفور بعد ذلك على إصلاح كل من المصيصة وطرسوس وعين على كل منهما والياً من قبله(١).

وقد أورد ياقوت الحموى رواية عن استيلاء نقفور على طرسوس تدل على بعض ما فعله هذا الإمبراطور من أجل الدعاية للمسيحية ، مما يوضح الطابع الصليبى الذى تميزت به حملاته على المسلمين فى الشرق . وفيما يلى تلك الرواية : " وحدث أبو القاسم التنوخى قال أخبرنى جماعة ممن جلا عن ذلك الثغر أن نقفور لما فتح طرسوس نصب فى ظاهرها علمين(٢) ونادى مناديه : من أراد بلد الملك الرحيم وأحب العدل والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وآمن السبل وصحة الأحكام والإحسان فى المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا – وعد أشياء جميلة – فليصر تحت هذه العلم ليقفل مع الملك الرحيم إلى بلاد الروم ، ومن أراد الزنا واللواط والجور فى الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع وغصب الأموال – وعد أشياء من هذا النوع غير جميلة – فليحصل تحت هذا العلم إلى بلاد الإسلام "(٣) .

ولا شك أن النجاح الذى أحرزه نقفور بإخضاع المصيصة وطرسوس كان له أهميته من حيث أنه فتح الطريق أمام البيزنطيين إلى الشام ، كما أمن

---

(١) عمر كمال توفيق نفس المرجع ص١٤١ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٤ ص٢٨ – ٢٩ دار إحياء التراث العربى بيروت ويذكر ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ١ ص١٤٣ تحقيق / سامى الدهان أن نقفور وضع رمحين وجعل على أحدهما مصحفاً وعلى الآخر صليباً .

(٣) ياقوت الحموى : نفسه .

نقفور الطريق ، وذلك باستيلاء قواته على قبرص في نفس العام (٩٦٥م / ٣٥٤م) وقد تبع ذلك المرحلة الأخرى من سياسة نقفور في الشرق ، التي أمتد فيها نشاطه بوجه خاص إلى البلاد الجزرية (أعالي العراق) والشام مغيرًا عليها ومخربًا أراضيها الزراعية ليمهد للاستيلاء عليها .

تنقسم جهود نقفور في السنتين الأخيرتيين من حكمه (٩٦٨ - ٩٦٩ / ٣٥٨ - ٣٥٩هـ) إلى قسمين : أولها العمليات الحربية التي قام بها وأشرف عليها بنفسه والأخرى إمتداد هذه العمليات عن طريق قواده وجيوشه في الشام حتى آخر عهده . ولم توجد في الشام حينئذ قوة موحدة لدفع خطر نقفور ويقول يحى بن سعيد الإنطاكي عن حملات هذا الإمبراطور في الشام : "كانت غزواته قد صارت كالنزهة له ولأصحابه لأنه لم يكن يقصد لهم أحد ، ولا يخرج بين أيديهم ، وكان يقصد حيث يشاء ويخرب كيف أراد من غير أن يلقاه أحد من المسلمين ولا غيرهم ولا يدفعه عما يريده دافع ولا مانع " . وكان من أهم ما أحرزه من مكاسب استيلاء البيزنطيين على إمارة إنطاكية وفرض السيادة البيزنطية على إمارة حلب سنة ٩٦٩ / ٣٥٩هـ(١) .

كان الاستيلاء على إنطاكية من أعظم نتائج التدخل البيزنطي في الشام في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فإن تلك المدينة الرئيسية التي بقيت في أيدىالمسلمين منذأن أستولواعليها من الروم(٢) سنة٦٣٥م/ ١٤هـ . قد أعيدت أخيراً للحكم البيزنطي ، وأصبح يحكمها حاكم يعينه إمبراطور

---

(١) يحى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ص١٢٨ باريس ١٩٢٤م ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص١٤٢ - ١٤٤ .

(٢) أيام الإمبراطور هرقل الذى حكم مصر من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١م .

بيزنطية ، كما أصبحت تلك المدينة الحصينة المعقل الأمامى للإمبراطورية البيزنطية على حدود الشام الشمالية(١) .

أما عن مدينة حلب فكان حاكمها " قرغويه " أحد ولاة الحمدانيين ، الذى خرج على طاعة سعد الدولة الحمدانى ، وقد قرر بطرس فوقاس القائد الذى تركه نقفور على رأس قواته فى شمال الشام التقدم إلى حلب ، وكان تقدم البيزنطيين كافياً لإبعاد سعد الدولة عن حلب ، وحاصروا المدينة ، وقام جماعة من أهلها بالتوسط بين فوقاس وقرغويه من أجل الصلح ، ووقعت اتفاقية بين الطرفين فى صفر سنة ٣٥٩هـ / ديسمبر ٩٦٩ - يناير ١٩٧٠م ، وقد أورد ابن العديم نصوص هذه الاتفاقية ، وقد وافق البيزنطيون بمقتضاها أن يحكم إمارة حلب أمير مسلم غير أنهم فرضوا عليه شروطاً تجعله مقيداً فى يد البيزنطيين . وقد جاء فى الاتفاقية شروطا تتضمن تحديد البلاد التى يحكمها من قبل بيزنطة ، فضلاً عن حقوق البيزنطيين والمسلمين فى هذه المنطقة(٢) .

وفيما يتعلق بتعيين أمير حلب جاء فى الاتفاقية : " أن الأمير على المسلمين قرغويه والأمر من بعده لبكجور وبعدهما ينصب ملك الروم أمير يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا أحداً "(٣) ، وحدد البيزنطيون المنطقة التى يحكمها أمير حلب والتى يعتبر مسؤلاً عنها أمام بيزنطة ، وفيما يلى ما ورد عنها فى كتاب ابن العديم : " والبلاد حمص

---

(١) لم يتمكن المسلمون من استرداد هذه المدينة إلا سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م . عمر كمال توفيق : نفس المرجع ص١٤٤ .

(٢) عمر كمال توفيق : ص١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ ص١٦٥ .

وجوسيه وسليمة وحماة وشيزر وكفر طاب وأفامية ومعرة النعمان وحلب وجبل السماق ومعرة مصرين وقنسرين والأثارب إلى طرف البلاط "[١] الذى يلى الأثارب وهو الرصيف إلى أرحاب[٢] إلى باسوفان[٣] إلى أطراف كيمار[٤] إلى برصايا[٥] إلى المرج الذى هو قرب أعزاز[٦] ويمين الحد كله لحلب والباقى للروم – ومن برصايا بميل إلى الشرق ويتصل وادى أبى سليمان إلى فج سنياب[٧] إلى نافوذاً إلى أرانا إلى تل حامد إلى يمين الساجور إلى مسيل الماء إلى أن يمضى ويختلط بالفرات[٨] .

فرضت التزامات مالية على أمير حلب يؤديها للإمبراطور البيزنطى ، فكان عليه أن يقدم جزية عن كل رأس بأمارته ، وكذلك حق الأرض فضلاً عن ضرائب فرضت على التجارة . أما عن الالتزامات العسكرية التى فرضت على أمير حلب ففيما يلى ما أورده عنها ابن العديم : " وإن ورد

---

(١) البلاط : مدينة عتيقة بين مرعش وأنطاكية يشقها النهر الأسود الخارج وهى مدينة كورة الحوار ، خربت وهى من أعمال حلب . ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ ص١٦٤ هامش (٥) .

(٢) أرحاب : تقع فى الشمال الشرقى من البلاط .

(٣) باسوفان : فى جبل سمعان فى الشمال من قلعة سمعان .

(٤) كيمار : على أثنى عشر كليوا مترا من باسوفان .

(٥) برصايا : هضبة قرب أعزاز على عدة كليو مترات من غربها الشمالى .

(٦) عزاز : بفتح أوله وتكرير الزاى ربما قيلت بالألف فى أولها والعزاز الأرض الصلبة وهى بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما يوم ابن العديم : جـ١ ص١٦٤ – ١٦٥ هامش (١٠) .

(٧) فج سنياب : يقع فى شمال دابق .

(٨) ابن العديم : جـ١ ص١٦٣ – ١٦٥ .

عسكر إسلامى يريد غزو الروم منعه قرغويه وقال له أمض من غير بلادنا ولا تدخل بلاد الهدنة ، فإن لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه ، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم والطربازى(١) لينفذ إليه من يدفعه - ومتى وقف المسلمون على عسكر كبير كتبوا إلى الملك وإلى رئيس العسكر وأعلموهما به لينظروا فى أمرها "(٢) .

ونصت الاتفاقية على أن يقوم أمير حلب بمساعدة البيزنطيين فى حالة محاربة غير المسلمين على النحو الآتى : " وأن غزا الروم غير ملة الإسلام سار إليه الأمير بعسكره وغزوا معه كما يأمره "(٣) .

كان من آثار التقدم الذى أحرزته قوات نقفور فى الشرق أن عم الفزع بين المسلمين فى البلاد الواقعة فى طريق هذا الإمبراطور وقد كتب المؤرخ يحى بن سعيد الأنطاكى واصفا شعور المسلمين آنذاك : " ولم يشك أحد فى أن نقفور يفتح جميع الشامات وديار ربيعة وديار بكر وتحصل فى يديه"(٤).

وكان يحق للمسلمين أن تساورهم المخاوف ، فضلاً عن تفكك قوى الإسلام السياسية فى الشام .

---

(١) الطربازى : هو بيبرفوقاس ابن أخى نقفور وابن لاون وهو قائد الحامية البيزنطية فى سورية الشمالية وقد جاء اسمه فى يحى بن سعيد " بطرس الاسطراطو بدرخ " ابن العديم جـ١ ص١٦٧ - ١٦٨ هامش (٤) .

(٢) ابن العديم : جـ١ ص١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ ص١٦٦ .

(٤) تاريخ يحى بن سعد الأنطاكى ص١٢٧ باريس ١٩٢٤م .

سياسة الفاطميين تجاه البيزنطيين منذ إنتقالهم إلى مصر حتى عهد المستنصر بالله الفاطمى :

واجه الفاطميون منذ تقدمت جيوشهم فى بلاد الشام صعوبات كثيرة من ناحية البيزنطيين ، والذين أخذوا يهددون حدود سوريا الشمالية بغاراتهم المتتالية ، كما زحفت قواتهم على أنطاكية سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م واستطاعوا بعد ذلك بمدة وجيزة أن يدخلوا حلب ويرغموا حاكمها على عقد صلح معهم(١) .

اتجهت سياسة الفاطمين إلى استعادة المدن التى استولى عليها البيزنطيون فى شمال الشام ، ليقضوا بذلك على الأخطار التى تهدد نفوذهم فى تلك البلاد وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد الفاطمى جعفر بن فلاح لكن الحملات الفاطمية التى أرسلت لإجلائهم عن أنطاكية فشلت فى تحقيق هذه الغاية ، لانشغال الفاطميين بصد القرامطة والقضاء على ما بقى لهم من نفوذ فى بلاد الشام(٢) .

استغل البيزنطيون فرصة النزاع بين الفاطميين والقرامطة لمواصلة شن غاراتهم فتقدم إمبراطور الروم حنا زيمسكيس(٣)

---

(1) Hitti : History of Syria. P. 460 .

(٢) محمد جمال الدين سرور :النفوذ الفاطمىفىبلاد الشام والعراق ص٢٢القاهرة ١٩٦٤.

(٣) أدت خشونة نقفور ومسلكه تجاه شريكيه الصغيرين فى الحكم إلى خوف أمهما ثيوفانو فتأمرت مع عشيقها حنا شمشقيق ضده ، ونجح المتآمرون فى قتل نقفور أثناء نومه وعندئذ أعلن حنا الأول شمشقيق إمبراطوراً (٩٦٩ - ٩٧٦م / ٣٥٨ - ٣٦٥هـ) وبدلاً من أن يتزوج هذا الإمبراطور الجديد من ثيوفانو اعتقلها فى أحد الأديرة . تاريخ يحى بن سعيد ص١٣١ .

Ghon Tzymisces(١) فـى سـنة ٩٧٥م / ٣٦٥هـ مـن أنطاكيـة إلـى حمـص ، ومنها إلى بعلبك ، واضطرت دمشق إلى التسليم ودفع الجزية له ، كما سـلمت له طبرية وقيسارية(٢) ، ثم سار الإمبراطور شمالاً حيث استولى على بيروت وصيداً . ولما حاول الاستيلاء علـى طرابلـس أوقعـت حاميـة المدينـة يعاونـها الأسطول الفاطمى الهزيمة بقواته ، ثم عادت الجيوش البيزنطيـة إلـى أنطاكيـة وعاد الإمبراطور إلـى القسـطنطينية حيـث توفـى(٣) فـى أوائـل سـنة ٩٧٦م / ٣٦٥هـ(٤) .

Diehl, Marcais. Op. cit P. P. 471 .

- والشمشقيق أو شوموشقيق وهو لفـظ أرمنـى بمعنـى قصـير القامـة ولقب كذلك بلقب دمستق وهو لفظ لاتينى لقب به قائد جيش الروم . انظر ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص١٦٩ .

(١) كان الإمبراطور حنا تزمسكيس المعروف فىالمصـادر العربيـة باسـم ابـن الشمشـقيق مهتما بشئون الشرق الإسلامى خاصة الأراضى المسيحية المقدسة ومن أقوى الشـواهد التـى تـدل علـى ذلـك تلـك الوثيقـة التاريخيـة البالغـة الأهميـة التـى حفظهـا لنـا المـؤرخ الأرمينى متى الرهاوى فى رسالة بعث بها هذا الإمـبراطور إلـى حليفـه اشـوط الثـالث ملك أرمينية المسيحى وفيها حدد هدفه الأساسى فى حروبه فى البلاد الشامية بقوله : " رغبتنا أن نحرر ضريح المسـيح مـن نـير المسـلمين " ، عمـر كمـال توفيـق : المرجـع السابق س١٤٩ .

(٢) وكان مما قاله أثر عودته من حملته على هذه البلاد ما يأتى : " لـم يتبـق حتـى الرملـة وقيساريه يابس أو ماء لم يخضـع لنـا " كمـا كتـب : " والآن صـارت فينيقيـا وفلسـطين متحررة من نير المسلمين " عمر كمال توفيق ص١٥٠ .

(٣) مات حنا الأول مسمومًا

Tout : The Empire and the Papacy. P. 163 .

(4) Cambridge Mediaeval History. Vol. IV. P. 148 .

ظل النزاع قائماً بين الدولة الفاطمية والدولة البيزنطية حتى سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م حين أرسل الخليفة العزيز بالله(١) حملة بحرية لغزو بلاد الروم ، غير أن هذه الحملة لم تحقق الغرض الذى أرسلت من أجله لاحتراق مراكبها ، ثم قدم إلى مصر رسل الإمبراطور باسيل(٢) الثانى(٣) (٩٧٦ - ١٠٢٥م / ٣٦٥ - ٤١٦هـ) تحمل هدية للخليفة العزيز وتطلب عقد الصلح بين الدولتين ، واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صنية من الذهب وأطباق محلاة بالذهب ، فأجاب الخليفة طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها :

---

(١) توفى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يوم الجمعة ١٠ ربيع الثانى سنة ٣٦٥هـ / ١٧ ديسمبر سنة ٩٧٥م وخلفه ابنه نزار بن معد أبو منصور الملقب بالعزيز بالله وعمره ٢١ سنة .

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية ص٣٩٧ الطبعة الأولى ١٩٨٠م المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٢) يذكر محقق كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب جـ١ ص١٩٠ هامش (٥) أن " بسل " تكتب هكذا على عادة المؤرخين العرب ولكن يحى بن سعيد يرسمه دائمًا " باسيل " لمعرفته باللغة فتابعناه من الاسم الأعجمى .

(٣)اشتهر باسيل الثانى بلقب " سفاح البلغار " لحروبه العنيفة ضدهم والتى استمرت نحوا من ثلاثين سنة ابتداء من سنة ٩٨١م / ٣٧٠ ولكنها لم تتخذ شكلاً شاملاً إلا منذ سنة ١٠٠٢م / ٣٩٢هـ عندما أخذ يتوسع على حساب البلغار حتى انتهى الأمر بإنزال هزيمة ساحقة بهم ، كما أسر نحوا من أربعة عشر ألف بلغارى سنة ١٠١٤م / ٤٠٥هـ وقد ارتكب جريمة شنعاء فى حق هؤلاء الأسرى بأن سمل كل أعين جميع الأسرى وترك لكل مائة أسير رجلاً بعين واحدة ليتولى قيادة زملائه العميان إلى ملكهم الذى سقط مغشيًا عليه من هول المنظر حين رآهم ولفظ أنفاسه بعد يومسن .

Vasiliev : Hist, de l'Empire Byzantine Tome. 1, P. 423, Ostrogorsky : Hist of the Byzantine State P. 257 .

١ – أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من أسرى المسلمين .

٢ – الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة .

٣ – حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .

٤ – عقد الهدنة بين الفريقين مدة سبع سنوات(١) .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير فى وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين لأن سعيد الدولة أبا الفضائل بن حمدان أمير الحمدانيين فى حلب(٢) ، لما علم بتوغل الفاطميين فى بلاد الشام استنجد بإمبراطور الروم باسيل الثانى فأمده الإمبراطور بحملة ، والتقت القوات المصرية والبيزنطية على ضفاف نهر العاصى ، ولحقت الهزيمة بالبيزنطيين سنة ٣٨١هـ / ٩٩١ – ٩٩٢م وعاد القائد الفاطمى منجوتكين إلى دمشق لنفاذ الأقوات ، فاستاء العزيز لذلك وأمره بفتح حلب ، وأرسل إليه المؤن ، فسار منجوتكين فى العام التالى ، وحاصرها حصارًا شديدًا حتى اضطر أميرها إلى الاستنجاد بالإمبراطور البيزنطى ثانية وكتب إليه يقول : " متى أخذت حلب ، أخذت أنطاكية ومتى أخذت أنطاكية أخذت قسطنطينية "(٣) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص١٥١ – ١٥٢ .
Lane Poole ; A History of Egypt in the middle Ages P. P. 147 - 148 .

(٢) تولى إمارة حلب بعد وفاة أبيه سعد الدولة وأخذ الجند البيعة له فى شهر رمضان سنة ٣٨١هـ .

ابن العديم : جـ١ ص١٨٢ هامش (٢) وانظر ابن الأثير : جـ٢ ص١٥٤ وذيل تجارب الأمم ص٢١٧.

(٣) أبو المحاسن : جـ٤ ص١١٩ – ١٢٠ .

لما رأى باسيل الثانى الخطر الذى يهدد بلاده من جراء هجوم الفاطميين على حلب عول على المسير إليها بنفسه ، فاستولى على حصن شيزر ، ثم فتح حمص ، وأخذ يتابع سيره حتى وصل طرابلس . ولما تعذر عليه فتحها عاد إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ / ٩٩٥م بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام(١) .

وعندما وقف العزيز على مدى تقدم البيزنطيين فى بلاد الشام استقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم ، فجهز حملة برية ، كما أمر عيسى بن نسطورس ببناء أسطول حربى ضخم فى دار صناعة المقس عام ٩٩٥م / ٣٨٥هـ وكان المشروع يرمى إلى بناء ستمائة سفينة جديدة بعضها من حجم كبير(٢) غير أن هذا الأسطول اشتعلت فيه النيران بميناء المقسى وأحرقت منه ستة عشر مركبًا . وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين فاتهموا الروم بتدبير مؤامرة إحراقه ، وقتلوا فريقًا كبيراً منهم ، وما لبث العزيز أن قضى على هذه الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول(٣) ثم أمر بإنشاء أسطول آخر ، فلبى وزيره عيسى بن نسطورس رغبته وشرع فى جمع الأخشاب وأمر الصناع بالإسراع فى إنجازه(٤) ، ولما

---

(١) تاريخ يحى بن سعيد ص١٦٦ .

(2) Lane Poole : A History of Egypt p. 112 .

أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص٣٠٤ .

(٣) نسب هذا الحريق إلى مؤامرة عملاء بيزنطة ، ولهذا قبضت الدولة على مائة من التجار اليونانيين وأعدمتهم .

أرشيبالدلويس : ص٣٠٤ — Lane Pool : op. cit. P. 120

(٤) المقريزى : خطط جـ ٢ ص١٩٥ - ١٩٦ .

تم بناؤه(١) أبحر إلى أنطرطوس(٢) ، غير أن معظم سفنه سرعان ما تحطمت على أثر هبوب عاصفةعليها وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى(٣)، أما الحملة البرية فخرج على رأسها الخليفة العزيز بنفسه إلى بلبيس ، لكن المرض اشتد عليه فجأة ، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م(٤) .

ظل البيزنطيون ينتهزون الفرص للنيل من الفاطميين ، فلما خرج أهل صور على طاعة الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م بزعامة رجل ملاح يعرف بعلاقة ، اتخذ عملة جديدة نقشت عليها هذه العبارة : " عز بعد فاقة للأمير علاقة " وأعلن استقلال مدينته(٥) فأرسل برجوان الذى كان يلى إذ ذاك الوصاية على هذا الخليفة – حملة كبيرة بقيادة " جيش بن الصمصامة الكتامى " إلى صور ، وكان " علاقة " الثائر بها قد استنجد بالإمبراطور باسيل الثانى فبعث إليه بإمدادات فى البحر ، ورأى برجوان من ناحية أن ينفذ إلى مياه صور بعض سفن الأسطول المصرى . فحوصرت المدينة من البر والبحر ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة انتهى الأمر فيها بسقوط صور فى أيدى القوات الفاطمية وهزيمة البيزنطيين(٦) وحليفهم الأمير " علاقة " الذى أسر وأرسل إلى القاهرة حيث قتل ، وواصل " جيش بن الصمصامة

---

(١) يشير لين بول إلى تفوق المصريين وقدرتهم البحرية أنهم أنزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط (منذ الحريق) سفنا من خير أنواع السفن ، AHist, of Egypt P. 121 ، أرشيبالديويس : ص٣٠٤ – ٣٠٥ .

(٢) من أعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر .

(٣) تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى ص١٨٧ .

(٤) أبو المحاسن : جـ٤ ص١٢٢ .

(٥) حتى : تاريخ سورية ص٢١٣ .

(6) Wiet (Gaston) : l'Egypte Arabe P. 148 - 149 .

الكتامى " سيره إلى أفامية Aphamea - شمال سورية - وهناك التقى بالبيزنطيين فتغلب عليهم وأخذ يطاردهم حتى أبواب أنطاكية(١) .

وعلى الرغم من تتابع انتصارات الفاطميين على البيزنطيين فى شمال الشام ، فإن " برجوان " عول على مهادنتهم ، ليتسنى له التفرغ للقضاء على الفتن الداخلية بمصر فأرسل إلى باسيل الثانى يقترح عليه عقد الصلح ، فرحب الإمبراطور البيزنطى بهذه الدعوة وأنفذ سفيرًا إلى الخليفة الفاطمى ليتفق معه على شروط الصلح ، وبينما كانت المفاوضات تدور بالقاهرة ، غزا باسيل بلاد الشام لوقف زحف القوات الفاطمية إلى أنطاكية وكاد مشروع الصلح ينهار لولا الفشل الذى لحق بالإمبراطور فى هجومه الجديد فارتد مسرعًا نحو أرمينية ، وآثر استتباب السلم فى حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار(٢) .

استؤنفت على أثر ذلك المفاوضات فى القاهرة بين رجال الدولة المصرية والسفير البيزنطى ، ولما تم الإتفاق على شروط الصلح ، انتدب " برجوان " أريسطيس " بطريرك بيت المقدس لمصاحبة السفير البيزنطى فى

---

(١) تاريخ يحى بن سعيد ص ١٨١ - ١٨٤ ، ابن خلدون : العبر جـ٤ .

(٢) جمال سرور : سياسة ص٢٤٢ - ص٢٤٣ ويذكر ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص٣٠٥ : " أنه فى خلال العشرين سنة التالية لم تحدث سوى اشتباكات طفيفة بين الإمبراطوريتين على الرغم من وجود خلافات ومنازعات قوية بين القاهرة والقسطنطينية . ذلك أن باسيل الثانى سخر كل قوى الإمبراطورية ، واستغل قدراته ومواهبه العسكرية البارعة فى مواجهة مشاكل البلغار حتى سنة ١٠١٨م / ٤٠٩هـ حين خضعت بلادهم نهائيًا وأنضمت للقسطنطينية راجع أيضًا
Runciman : Byzantine Civilization P. 49 .

سفره إلى القسطنطينية لعرض هذه الشروط على الإمبراطور وإقرارها منـه . فقام أريسطيس " بهذه المهمـة ، وتـم بذلـك إبـرام معـاهدة صادقـة بيـن مصـر والدولة البيزنطية تقرر فيها ما يأتى :

١ - تظل الهدنة قائمة بين مصر والدولة البيزنطية مدة عشر سنوات(١) .

٢ - يتمتع المسيحيون الذين يقيمون فى أنحاء الدولة الفاطمية بالحرية الدينيـة ويسمح لهم بتجديد كنائسهم وبناءها .

٣ - يتعهد الإمبراطور باسيل الثانى بإمداد مصر بما تحتاج إليه من الحبوب.

٤ - احتفاظ بيزنطة بما تحت يدها من الأراضى السورية وزادت عليه قليلاً ، أما الشواطىء فبقيت فى قبضة الفاطميين(٢) .

على أن الإمبراطور البيزنطى سرعان ما قطع علاقته بالدولة الفاطميـة حين وصلته أنباء سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى ، إذ بدأ الحـاكم ينتهـج سياسة الشدة مع غير المسلمين من رعاياه سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م ، ثم تجلـى عنفه فى معاملتهم سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م فحتم عليهم لبس أزياء خاصة ، ولم يمضى على ذلك ثلاث سنوات حتى اتسع نطاق اضطهاد النصارى واليهـود ، فـأمر الحـاكم بهـدم بعض الكنـائس فـى القـاهرة وفـى الوقـت الـذى اشـتد فيـه اضطهاد الذميين تقلد الوزارة منصور بـن عبـدون النصرانـى وقـد أشـار هـذا

---

(١) أبو المحاسن : جـ٤ ص١٩٢ .

Lane Poole: A Hist, of Egypt P. 136.

(٢) أرشيبالدلويس : القوى البحرية والتجارية ص ٣٠٥ ويعلق على ذلك بقوله : " وهكذا أجبر البيزنطيون على اقتسام السيطرة علـى ميـاه شـرق البحـر المتوسـط مـع البحريـة المصرية القوية " .

الوزير على الخليفة الفاطمى الحاكم بوجوب هدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس ، فأصدر مرسوماً بهدمها(١) . ولم يقف اضطهاد الحاكم للذميين عند هذا الحد ، بل ألغى جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديرة بأعمال مصر ، وترتب على تلك السياسة دخول كثير من كتاب الذميين فى الإسلام وتبعهم فريق من عامة النصارى ، كما هاجر بعضهم إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية والحبشة والنوبة ، وأجاز لهم الحاكم هذه الهجرة وأذن للمهاجرين منهم بحمل أموالهم .

على أن الحاكم لم يستمر على هذا الاضطهاد ، فأصدر قبيل اختفائه سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م عدة مراسيم لإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ورد ما أخذ من أوقاف الكنائس والأديرة ، وسمح للمسيحيين بتجديد الكنائس كما منحهم أماناً أمنهم فيه على نفوسهم ودمائهم وأولادهم وأموالهم(٢) .

وظل الحال على ذلك إلى أن توفى هذا الخليفة(٣) ، وخلفه ابنه الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٢١ - ١٠٣٥م) فحاولت عمته ست الملك - التى قامت بالوصاية عليه - توطيد العلاقة بين مصر والدولة البيزنطية ، وتنفيذاً لهذه الرغبة أرسلت نيقفور بطريرك بيت المقدس سفيراً إلى باسيل الثانى ليعمل على عقد أواصر الصداقة بين الدولتين ، وليخبره بالإجراءات التى اتخذت فى القاهرة لرفع الحيف عن النصارى ، وتجديد بناء

---

(١) تاريخ يحى بن سعيد : ص١٩٤ .

(٢) تاريخ يحى بن سعيد : ص ٢٣٢ .

(٣) فى ٢٧ شوال سنة٤١١هـ الموافق١٤فبراير سنة١٠٢١م فقد الحاكم بأمر الله ولم يعرف له خبر، وعلم بعدها أنه قتل فىالجبل الشرقىفىحلوان بدسيسة من أخته ست الملك.محمد مختار:التوفيقات الإلهامية ص ٤٤٣ .

الكنائس ، بيد أن هذه السفارة لم تأت بطائل ، وظلت غارات البيزنطيين تتوالى على شمال الشام حتى سنة ٤١٨هـ / ١٠٢٧م حيث أنفذ الظاهر سفارة إلى الإمبراطور قسطنطين الثامن (سنة ١٠٢٥ - ١٠٢٨م / ٤١٦ - ٤١٩هـ)(١) . لعقد الصلح ، فتم الاتفاق بين الفريقين على إبرام معاهدة تضمنت شروطاً التزم تنفيذها كل من الخليفة الفاطمى والإمبراطور البيزنطى وفيما يلى هذه الشروط(٢) :

١ - أن يسمح للإمبراطور البيزنطى بإعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس .

٢ - أن يسمح لكافة المسيحيين بإعادة بناء الكنائس التى هدمها الحاكم عدا التى حولت إلى جوامع .

٢ - ترك الحرية للمسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام فى عهد الحاكم بالعودة إلى دينهم(٣) .

٤ - أن يعين الإمبراطور البيزنطى بطريقاً فى بيت المقدس .

---

(١) توفى باسيل الثانى فجأة وهو فى الثمانين من عمره سنة ١٠٢٥م / ٤١٦هـ وتمثل وفاته نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية نظراً لما أعقب هذه الوفاة من إنحلال ظاهر فى أحوال تلك الإمبراطورية الخارجية والداخلية ، ذلك أن باسيل الثانى لم يترك ولداً يرثه فانفرد أخوه قسطنطين الثامن بعرش الإمبراطورية، Ostrogorskh: op. cit. p. 283.، سعيد عاشور: أوربا فى العصور الوسطى جـ١ ص ٤٢٥ .

(٢) يحى بن سعيد الأنطاكى : ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

G. Wiet: Histoire de la Nation Egyptienne (l'Egypte Arabe) P.P. 222 - 223.

(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٥٥ .

٥ – ألا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائى نحو حلب حتى تقوم بسداد الجزية السنوية التى كانت تدفعها للدولة البيزنطية منذ عام ٩٧٠م / ٣٦٠هـ .

٦ – ألا تمد الدولة الفاطمية يد المساعدة لأى عدو من أعداء الدولة البيزنطية خاصة أهل صقلية ، الذين هددوا هذه الدولة ، وعاثوا فى جزر بحر الأرخبيل ، وكان الإمبراطور البيزنطى يخشى إنضمام الأسطول الفاطمى إلى هؤلاء فيتعذر عليه إخضاعهم .

وفى مقابل هذه الشروط يتعهد الإمبراطور بما يأتى :

١ – أن يعمل على ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة فى جامع القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية .

٢ – أن يعيد بناء جامع القسطنطينية .

٣ – أن يطلق سراح الأسرى المسلمين الذين فى قبضة الروم .

٤ – ألا يقدم الإمبراطور آية مساعدة لحسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة الذى خرج على الخليفة الظاهرة والفاطمى .

٥ – أن يسحب الإمبراطور طلبه الخاص بالاستعاضة عن شيزر بأفامية .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى هذا الصلح أن الإمبراطور البيزنطى تعهد بإعادة بناء جامع القسطنطينية ، وكان البيزنطيون قد أقدموا على هدمه حين بلغهم هدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، ثم أعادوا بناءه فى أيام الظاهر الفاطمى(١) .

---

(١) يذكر المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٥٥ فى حوادث سنة ثمان عشرة (وأربعمائة) أن " وقعت الهدنة مع صاحب الروم وخطب للظاهر فى بلاده ، وأعاد الجامع بقسطنطينية وعمل فيه مؤذناً فأعاد الظاهر كنيسة قمامة بالقدس " .

وقد رمى البيزنطيون من وراء بناء مسجد للمسلمين فى القسطنطينية إلى تحسين علاقاتهم بالدول الإسلامية ، فيخطبون للفاطميين تارة وللعباسيين تارة أخرى ، ويهدمون هذا المسجد إذ تعرض المسلمين لكنيسة القيامة ببيت المقدس(١) .

لم يلبث البيزنطيون أن نقضوا هذا الصلح سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م وانضموا إلى أعداء الفاطميين ، وأغاروا على بلاد الشام ويقول أبو الفد(٢) : " وفى سنة ٤٢٢هـ سارت الروم ومعهم حسان بن مفرج بن الجراح الطائى ، وهو مسلم ، وكان قد هرب إليهم حين انهزم على الأردن من معسكر الظاهر العلوى ، فسار مع الروم إلى الشام وعلى رأس حسان المذكور علم فيه صليب ، ووصلوا إلى فامية فكبسوها ، وغنموا ما فيها وملكوا قلعتها وأسروا وسبوا " .

ويتضح من انحياز الأمير حسان بن مفرج بن الجراح الطائى إلى جانب البيزنطيين تغليبه مصالحه الخاصة على المصلحة العامة .

تحسنت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين فى أوائل عهد المستنصر بالله(٣) (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) فعقد هذا الخليفة هدنة مع

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٨ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٥٨ .

(٣) هو أبو تميم محمد بن الظاهر ، ولد فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ٤٢٠هـ / ٤ يوليو ١٠٢٩م وبويع بالخلافة فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ وهو فى السابعة من عمره وظل فى الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص١٦٩ .

الإمبراطور ميخائييل الرابع(١) سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م تقضى بأن يطلق الروم " خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة قمامة (كنيسة القيامة) التى كان قد خربها الحاكم فى أيام خلافته ، فأطلق الأسرى ، وأرسل من عمر قمامة ، وأخرج ملك الروم عليها أموالاً جليلة "(٢) .

ولما ولى قسطنطين التاسع(٣) الحكم حافظ على استمرار العلاقة الودية مع الفاطميين ، فبعث إلى المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م هدية عظيمة " اشتملت على ثلاثين قنطاراً من الذهب الأحمر ، قيمة كل قنطارة عشرة آلاف دينار عربية "(٤) .

فيضان نهر النيل وأثره على الإنتاج الزراعى فى مصر فى العصر الفاطمى الأول :

لا شك أن الإنتاج الزراعى تعرض لعدة عوامل فى نواحى البلاد المصرية ، كان لها تأثير بالغ فى كمية إنتاجه ، وكان نقص فيضان نهر النيل من أهم العوامل المؤثرة فى ندرة المحاصيل الزراعية . وكان هذا طبيعياً فى بلد تعتمد زراعته فى المقام الأول على الرى من ماء النيل . فمساحة الرقعة الزراعية وكمية المحصول تتوقف على مدى ما يغمره ماء الفيضان من الأرض .

---

(١) ميخائيل الرابع : (البلافلاجونى) حكم من سنة ١٠٣٤ - ١٠٤١م / ٤٢٦ - ٤٣٣هـ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٤٠ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٦٢ .

(٣) قسطنطين التاسع مونوماخوس،تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية من ١٠٤٢م إلى سنة ١٠٥٤م / ٤٣٣هـ .

(٤) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ٢ ص ٥٤ .

ويروى الكندى عن محفوظ بن سليمان – عامل خراج مصر فى عهد هارون الرشيد – " إذا تم الماء ستة عشرة ذراعاً فقد وفى خراج مصر ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعاً واحداً زاد فى الخراج مائة ألف دينار لما يروى من الأعالى من الأعمال ، فإذا زاد بعد ذلك ذراعاً نقص مائة ألف من الخراج لم تستبحر من البطون "(١) وأحياناً كان النيل يصل إلى حد الوفاء ثم يعقب ذلك هبوط سريع مفاجىء قبل أن يتم رى جميع الأراضى(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن فيضان نهر النيل ظل منخفضاً من سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م حتى الفتح الفاطمى لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م(٣) وترتب على ذلك ندرة المحاصيل الغذائية فيذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٥٨هـ " أنه لما مات كافور الأخشيدى صاحب مصر ، وقع غلاء شديد حتى بلغ الخبز كل رطلين بدرهم والحنطة كل ويبة بدينار وسدس . فلما بلغ الخبر بهذه الأحوال المعز وهو بأفريقية سير جوهر إليها(٤) . وحينما دخل جوهر مصر فى هذه السنة ، كان مما نظر فيه أمر الأسعار فضرب جماعة من الطحانين . وجمع سماسرة الغلال بمكان واحد ، فكان لا يخرج قدح قمح إلا ويقف عليه سليمان بن عزة المحتسب ، واستمر الغلاء إلى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م(٥) .

---

(١) الكندى : فضائل مصر ص ٦٠ تحقيق إبراهيم العدوى .

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٧٩ .

(٣) يحى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ص ١١٤ نشر كراتشوفسكى وفاسيليف باريس سنة ١٩٢٤م .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٧ ص ٣١ القاهرة سنة ١٣٥٣هـ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٢٠١ تحقيق زكى حسن القاهرة سنة ١٩٥٣م .

(٥) المقريزى: أغاثة الأمة بكشف الغمة ص ١٣ – ١٤ تحقيق / محمد مصطفى زيادة .

ولما انخفض منسوب ماء النيل سنة ٣٨٧ / ٩٩٧م فى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، قل إنتاج القمح تبعاً لذلك ، وفى سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م بلغ فيضان النيل خمسة عشر ذراعاً وسبعة أصابع ، وانتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعاً وأصابع فارتفعت الأسعار(١) .

وفى سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م غلت الأسعار لنقص النيل إلى ثلاث عشر ذراعاً وأصابع مما ساعد على اشتداد موجة الغلاء ، حتى بلغ سعر الحملة من القمح (الدقيق) إلى ست دنانير والتليس من القمح أربعة دنانير والويبة من الأرز بدينار(٢) .

ومما يجدر ذكره أن المصريين لم يعرفوا فى ذلك العصر كيف يتحكمون فى مياه النيل عن طريق السدود والقناطر . وإنما كانت الأرض تروى مرة واحدة فى العام وقت الفيضان ، فإذا جاء الفيضان دون معدله تعذر رى الأرض وزراعتها ، وتعرضت البلاد للقط والمجاعات ، وكان يكفى أن ينتشر خبر قصور النيل حتى يسود الخوف وترتفع الأسعار ويختفى الخبز والغلال(٣) .

وكان الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى قد فكر فى تلافى الأخطار التى تعرضت لها مصر من جراء فيضان النيل وانخفاضه ، فاستدعى الحسن بن

---

(١) نفس المصدر ص ١٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ص ٣٠٥ تحقيق زيادة والشيال.

Stanley lane poole: A History of Egypt in the middle Ages. P. 128.

(٣) سعيد عاشور وعبد الرحمن الرافعى : مصر فى العصور الوسطى ص٢٦٠ مكتبة النهضة المصرية سنة١٩٧٠ .

الهيثم البصرى لما بلغه ما قاله : " لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص " ثم طالبه بتنفيذ ما وعد به من أمر النيل ، وأرسل جماعة من الصناع إلى الموضع المعروف بالجنادل ، قبلى مدينة أسوان ، وخبر النيل هناك ، فلم يجده كما بلغه من قبل، كما لم يجد الأمر متفقاً مع فكرته التى خطرت له فاعتذر للحاكم بأمر الله(١).

استغل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على إنعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح ، فأظهر الإمبراطور استعداده لإجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الإمبراطورة ثيودورا (١٠٥٤ - ١٠٥٦م / ٤٤٦ - ٤٤٨هـ) فاشترطت لمعونة مصر أن يمدها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أى معتد، غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر(٢) .

أثارت سياسة هذه الإمبراطورة غضب الخليفة المستنصر ، وعول على محاربتها فجهز جيشاً تحت قيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم ، وما لبث هذا القائد أن نزل بالقرب من أفامية ، ثم تجول فى أعمال إنطاكية(٣) فأنفذت

---

(١) انظر : ابن العبرى (جريجوريوس) تاريخ مختصر الدول ص ٣١٦ وما بعدها . تحقيق / صالحانى ، ابن أبى أصيبعة : عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ص ٥٥١ ، بيروت سنة ١٩٦٥م .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٦ .

(٣) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٣٥ .

الإمبراطورة حملة بحرية أوقعت به الهزيمة ، وأسر هو وكثير من جنده سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥ - ١٠٥٦م وكان ذلك مما حمل المستنصر على أن يعهد للقاضى أبى عبد الله القضاعى بالذهاب إلى القسطنطينية لتسوية الخلافات بين الدولتين .

القاضى أبو عبد الله القضاعى رسول المستنصر :

يقول ابن خلكان(١) فى ترجمته عن القضاعى(٢) : " أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن على بن حكمون بن إبراهيم ابن مسلم القضاعى(٣) الفقيه الشافعى " ، ويشير ابن خلكان(٤) . فى حديثه عن الظاهر الفاطمى أنه استوزر نجيب الدولة أبا القاسم على بن أحمد الجراجرائى(٥) - وكان أقطع اليدين من المرفقين - سنة

(١) وفيات الأعيان : جـ٤ ص ٢١٢ .

(٢) القضاعى : بضم القاف وفتح الضاد المعجمة وبعد الألف عين مهملة نسبة إلى قضاعة ويقال أن عمرو بن معد بن عدنان، من حمير وأنه كان ملكاً على بلاد "الشحر" بين عمان واليمن ، قال البكرى : كانت مساكنهم بين جدة وذات عرق (بقرب مكة) . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٤ ص ٢١٣ ، الزركلى : الأعلام ص ١٩٩ .

(٣) قال ابن خلدون : كان لقضاعة ملك ما بين الشام والحجاز إلى العراق واستعملهم الروم على بادية العرب ، يعنى فى مشارف الشام وقال : إن فى كتب الحكماء الأقدمين من يونان " ذكر للقضاعيين وحروبهم، ونقل الهمدانى عن ابن منبه أن قبر " قضاعة " اكتشف فى اليمن أيام عمر ذى الأذعار الحميرى وفيه عمود أخضر كتب عليه بالمسند : " هذا قبر قضاعة ابن مالك بن حمير " وقال اليعقوبى " كانت تلبية قضاعة فى الجاهلية إذا حجت : " لبيك عن قضاعة ، لربها دفاعة ، سمعاً له وطاعة". الأعلام : جـ٥ ص ١٩٩ دار العلم للملايين بيروت - لبنان .

(٤) وفيات الأعيان : جـ٣ ص ٤٠٧ .

(٥) انظر : بن منجب الصيرفى : الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٣٥ .

٤١٨هـ / ١٠٢٧م، وكان يكتب عنه العلامة القاضى أبو عبد الله القضاعى(١) .

تولى أبو عبد الله القضاعى القضاء بمصر ، وتوجه رسولاً إلى الروم وله عدة تصانيف منها كتاب " الشهاب " وكتاب " مناقب الإمام الشافعى رضى الله عنه وأخباره " وكتاب " الأنباء عن الأنبياء " و " تواريخ الخلفاء"(٢) وله كتاب " خطط مصر " وكان كما ذكره الأمير أبو نصر بن ماكولا فى كتاب " الأكمال " متفنناً فى عدة علوم(٣) .

أوضاع الدولة البيزنطية أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)

تدهورت الأوضاع السياسية فى الدولة البيزنطية منذ وفاة الإمبراطور باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م / ٤١٦هـ ودخلت بيزنطة فى فترة من الفوضى والاضطراب كانت بداية لانهيار عام للدولة فى تنظيماتها العسكرية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية . فبعد وفاة باسيل الثانى خلفه أخوه قسطنطين الثامن (١٠٢٥- ١٠٢٨م / ٤١٦ - ٤١٩هـ) وكان عمره سبعون سنة وشغله الشاغل إنفاق الأموال الكثيرة التى جمعها باسيل الثانى . ولم يهتم هذا

---

(١) قطعهما الخليفة الحاكم والد الظاهر فى شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعمائة على باب القصر البحرى بالقاهرة ، وحمل إلى داره ، وكان يتولى بعض الدواوين فظهرت عليه خيانة قطع بسببها ، ثم بعد ذلك ولى ديوان النفقات سنة تسع وأربعمائة ابن خلكان : وفيات جـ٣ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .

(٢) وهذا الكتاب اسم " عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف " وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٩١ ودار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١٧٧٩ تاريخ .

(٣) ابن خلكان : جـ٤ ص ٢١٢ .

الإمبراطور العجوز إلا بسباق الخيل والصيد والشراهة فى الأطعمة والمشروبات بالإضافة إلى ما عرف به من غباء إذ ترك تصريف أمور الدولة فى أيدى جماعة من الطواشية واشترى السلام من البرابرة الذين هددوا الدولة البيزنطية(١) . ونجحت الإمبراطورة زوى Zoe ابنة قسطنطين الثامن – بعد موت أبيها – فى مساعدة أزواجها الثلاث للوصول إلى عرش الإمبراطورية(٢) .

وفى عهد قسطنطين مونوماخوس حدثت القطيعة بين كنيستى روما والقسطنطينية سنة ١٠٥٤م / ٤٤٦هـ . فمن المعروف أن حركة الإصلاح الكلونية(٣) ، التى نادت بالعودة إلى تعاليم السلف وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية كان لها تأثيرها فى تجديد شباب البابوية . وكان هدف هذه الحركة إصلاح الكنيسة وتنظيماتها المتداعية والقضاء على أمراض الكنيسة مثل شراء الوظائف الدينية (السيمونية) وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى(٤) .

---

(1) Bury: Roman Emprars. P. 52.

(٢) وهم رومانوس الثالث RomanosIII (١٠٢٨ – ١٠٣٤م) وميخائيل الرابع IV Michael (١٠٣٤-١٠٤١م) ، وقسطنطين التاسع مونوماخوس Costantine IX Monomachus (١٠٤٢ – ١٠٥٥) .

Vasiliev: Byzantine Empire. I. P. 351.

(٣) حركة إصلاح دينية نسبة إلى دير كلونى

حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٦٢ وعن حركة الإصلاح الكلونية انظر : سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى الطبعة السادسة جـ١ ص ٣٣٩ – ٣٤٣ .

(٤) التقليد العلمانى : وهو أن يقوم الحكام العلمانيون من أباطرة وملوك وأمراء بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية .

وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى تولى كرس البابوية فى روما البابا ليو التاسع ، الذى قام بالتدخل فى الشئون الكنسية ، بل وفى مجال الأمور السياسية واقتنع البابا بضرورة انتشار النفوذ البابوى فى شئون الأقاليم البيزنطية فى جنوب إيطاليا وتأكيد السمو الروحى للبابوية . وكان من الطبيعة أن تقاوم الكنيسة اليونانية البيزنطية مثل هذا التدخل مما ساعد على حدوث الشرارة التى فجرت الاختلافات القديمة العميقة بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية.وفى صيف سنة ١٠٥٤م / ٤٤٦ أرسل البابا ليو التاسع وفداً إلى القسطنطينية برئاسة الكاردينال المتكبر همبرت Cardinal Humbert لكى يشرح رأى البابوية إلى البطريرك البيزنطى كيرولاريوس Cerularius الذى كان من أقوى الرجال الذين تولوا كرسى كنيسة القسطنطينية . ويبدو أن مسالك الوفد البابوى كان مشوباً بالتعالى وعدم الاحترام ، وأبدى البطريرك البيزنطى شعوراً مماثلاً مما جعل الاختلافات بين الطرفيين تصل إلى ذروتها. وامتدت الاختلافات من وجهات النظر إلى التفاصيل الجزئية مثل المذهب والطقوس وعدم زواج رجال الدين واستخدام الخبز غير المخمر والصيام وما إلى ذلك . وعندما رفض البطريرط تقديم آية تنازلات لكنيسة روما وضع همبرت قرار الحرمان على مذبح كنيسة القديسة صوفياً بالقسطنطينية معلناً اللعنة على البطريرك ميخائيل كيرولاروس وأتباعه الهراطقة الذين وصفهم بأتباع الشيطان . وعقد البطريرك ميخائيل اجتماعاً دينياً أصدر فى نهايته قرار الحرمان ضد الوفد البابوى ومن يشايعهم وكل المتصلين بهم الذين وفدوا " إلى المدينة التى يحرسها الله مثل الرعد..."(١) .

---

(1) Vasiliev: Byzantine Empire I.PP. 337-339

، حسنين ربيع : نفسه ص ١٦٤ – ص١٦٥ ،

Vryonis : Byzantium. p. 139.

وهكذا حدثت القطيعة الكبرى التى كانت نتيجة لعلاقات سلبية معقدة عبر قرون عديدة ماضية تمثلت فى الفروق الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالمين الغربى والشرقى ، وانعكست فى الاختلافات بين الكنيستين حول الزعامة الروحية العالمية وقضايا جزئية أخرى . ورغم أن هذا القطيعة جعلت بطريرك القسطنطينية مستقلاً تماماً عن الإدعاءات البابوية فى الغرب وأصبحت سلطته أكثر قوة فى العالم الإسلامى وفى الكنائس الشرقية ، إلا أن هذه القطيعة كانت ذات نتائج خطيرة لأنها قضت على كل احتمالات حدوث أى تفاهم سياسى فى المستقبل بين الدولة البيزنطية والغرب اللاتينى الذى ظل تحت تأثير قوى من البابوية . كما كانت هذه القطيعة الدينية مميتة ومشئومة لأن الدولة البيزنطية كانت فى هذه الفترة فى أشد الحاجة لمساعدة الغرب الأوربى خاصة فى الوقت الذى اقترب فيه خطر الأتراك السلاجقة من الدولة البيزنطية(١) .

فشل المباحثات الفاطمية البيزنطية :

أدى ظهور السلاجقة(٢) ، وتفاقم خطرهم وتهديدهم بلاد الدولة البيزنطية وتهديدهم الفاطميين فى بلاد الشام إلى حرص كل من البيزنطيين

، عبد القادر اليوسف : الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢٨ – ص ١٢٩ .

، عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ١٣٠ – ١٣١ .

(1) Vasiliev: I. P.P. 338-339.

(٢) السلاجقة : نوع من قبائل الغز الأتراك ، موطنها الأصلى سهول التركستان استقروا فى بلاد ما وراء النهر فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق . الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ص٢ ، ص٣ ، ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٢٦٧ ، الراوندى : راحة الصدور وآية السرور ص ١٤٥ ، ابن الأثير : جـ٣ ص

والفاطميين على درء خطرهم(١) فلما وصل أبو عبد الله القضاعى إلى القسطنطينية ، لم تحفل الإمبراطورة بوجوده ، على حين رحبت برسول طغرلبك السلجوقى(٢) . الذى قد إذ ذاك من العراق ومعه رسالة من السلطان يلتمس فيها أن يصلى رسوله فى جامع القسطنطينية ، فأذنت له بذلك ، فدخل وصلى فيه صلاة الجمعة ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى(٣) (٤٢٢ - ٤٦٧هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥م) ولا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك القوت أشد خطراً على البيزنطيين من الفاطميين ، الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون فى مصر كثيراً من الصعاب(٤) .

---

١٧٦ - ١٧٨ . دائرة المعارف الإسلامية جـ٥ ص ٣٤ - ٣٧. بدر عبد الرحمن محمد : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى ص ١٩٨ .
Vasiliev: Op. Cit. Tome 1, P. 467.

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٠ .

(٢) كانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت تعانى حالة خطيرة من الضعف والإنهاك ، فلم يسع الخليفة القائم بأمر الله إلا أن يعترف بطغرلبك ، الذى دخل بغداد سنة٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م وقام طغرلبك بالقضاء على ثورة البساسيرى ، ثم أخضع الموصل وديار بكر وغيرها من الأطراف الغربية للدولة . ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة العباسية .

ابن الأثير : الكامل جـ٩ ص ٢٥٤ ، ص٢٥٥ ، ابن خلدون : العبر جـ٣ ص ٤٥٩ ، محمد محمود إدريس : تاريخ العراق والمشرق الإسلامى خلال العصرر السلجوقى الأول ص ٩٥ ، ص ٩٩ - ١١٠ مكتبة نهضة الشرق سنة ١٩٨٥م .
Cambridge med. Hist. Vol. 4. pp. 304-305, Ostrogorsky: op. cit. P. 303.
سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى جـ١ ص ٤٣١ .

(٣) المقريزى خطط جـ١ ص ٣٣٥ .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٦ .

لما وقف الخليفة المستنصر على سياسة الإمبراطورة العدائية إزاءه والإساءة التى لحقت بسفيره ، بعث فى طلب كنوز كنيسة القيامة ونفائسها فأرسلت إليه(١) . وكان من أثر انحياز البيزنطيين إلى جانب السلاجقة أن ساءت العلاقة بينهم وبين الفاطميين منذ ذلك الحين حتى قيام الحروب الصليبية(٢) .

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر جـ٦ وما يليها .

ويذكر المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٣٥ أن القضاعى لما أرسل إلى المستنصر يخبره بما حدث أرسل إلى كنيسة قمامة ببيت المقدس وقبض على جميع ما فيها وكان شيئاً كثيراً من أموال النصارى ، ففسد حينئذ ما بين الروم والمصريين حتى استولوا على بلاد الساحل كلها .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦١ .

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمترجمة :

ابن الأثير : (٦٣٠هـ / ١٢٣٨م) على بن أحمد بن أبى الكرم .

- الكامل فى التاريخ ، دار الكتاب العربى – بيروت – لبنـات ، القـاهرة سنة ١٣٥٣هـ .

الداعى إدريس عماد الدين : (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م)

- تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب القسم الخص من كتاب عيون الأخبار تحقيق / محمد اليعلاوى دار الغرب الإسلامى سنة ١٩٨٥م .

ابن أبى أصيبعة : (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م) أبو العباس أحمد بن القاسم

- عيون الأبناء فى طبقات الأطباء بيروت سنة ١٩٦٥م .

أمارى :

- المكتبة الصقلية .

الأنطاكى : يحى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) .

- تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى – نشر كراتشوفسكى وفاسيليف باريس سنة ١٩٢٤ .

بدر عبد الرحمن محمد .

- الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى العراق والمشرق الإسلامى ، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٩م .
- الأغالبة والأدارسة فى بلاد المغرب – مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٦م .

ابن تغرى بردى : (ت٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) أبو المحاسن جمال الدين يوسف .
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - طبعة دار الكتب المصرية .
حسن إبراهيم حسن :
- تاريخ الدولة الفاطمية الطبعة الرابعة سنة ١٩٨١م
- تاريخ الإسلام السياسى الطبعة التاسعة سنة ١٩٧٩م
حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف :
- كتاب عبيد الله المهدى القاهرة سنة ١٩٤٧م .
- المعز لدين الله القاهرة سنة ١٩٤٨م .
حسنين ربيع :
- دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية - دار النهضة العربية سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٦م .
الحسينى : (عاش فى القرن السابع الهجرى) على بن السيد أحمد
- أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد إقبال - لاهور - جامعة البنجاب سنة ١٩٢٣م .
ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد .
- العبر وديوان المبتدأ والخبر المعروف بتاريخ ابن خلدون بولاق سنة ١٢٨٤هـ .
ابن خلكان : (ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم .
- وفيات الأعيان ، تحقيق / إحسان عباس - بيروت - لبنان .
راشد البرواى :
- حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

الرواندى : محمد بن على بن سليمان
- راحة الصدور وآية السرور ، ترجمه إلى العربية / إبراهيم الشواربى عبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد .

الزركلى : خير الدين
- الإعلام - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان .

ابن سعيد : (٦٧٣هـ / ١٢٧٥م) على بن موسى المغربى
- المغرب فى حل المغرب ، تحقيق : زكى محمد حسن ، وسيدة كاشف، وشوقى ضيف - القاهرة سنة ١٩٥٣م .

السيد عبد العزيز سالم الدكتور :
- تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، مؤسسة شباب الجامعة - أسكندرية.

عاشور سعيد عبد الفتاح :
- أوربا فى العصور الوسطى
الجزء الأول مكتبة الأنجلو المصرية - الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦م

سعيد عاشور وعبد الرحمن الرافعى :
- مصر فى العصور الوسطى - مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م.

عبد القادر اليوسف :
الإمبراطورية البيزنطية بيروت سنة ١٩٦٦ .

ابن العبرى " جريجوريوس " :
- تاريخ مختصر الدول تحقيق الأب صالحانى اليسوعى بيروت سنة١٨٩٠ .

ابن العديم الحلبى : (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١ - ١٢٦٢م) كمال الدين أبو حفص أبو القاسم عمر بن أحمد بن .
- زيدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق : سامى الدهان

ابن عذارى: (توفى أواخر القرن السابع الهجرى) أبو عبدالله محمد المراكشى.
- البيان المغرب نشر دوزى ليدون سنة ١٨٤٨م .

عمر كمال توفيق الدكتور :
- تاريخ الدولة البيزنطية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الأسكندرية سنة ١٩٧٧م .

ابن العميد : (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م) الشيخ المكين جرجس بن العميد.
- تاريخ المسلمين ليدن سنة ١٦٢٥م .

أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م) عماد الدين إسماعيل بن محمد .
- المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية الطبعة الأولى .

الكندى : (ت سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م) أبو عمر محمد بن يوسف
- فضائل مصر ، تحقيق / إبراهيم أحمد العدوى - القاهرة سنة ١٩٧١م .

لويس : أرشيبالد
- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة / أحمد عيسى - مكتبة النهضة المصرية .

محمد جمال الدين سرور :
- سياسة الفاطميين الخارجية - دار الفكر العربى سنة ١٩٧٦
- الدولة الفاطمية فى مصر - دار الفكر العربى .

محمد محمود إدريس :
- تاريخ العراق والمشرق فى العصر السلجوقى الأول ، مكتبة نهضة الشرق سنة ١٩٨٥م .

محمد مختار :
- التوفيقات الإلهامية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

المقريزى :

– اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق / محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال – القاهرة سنة ١٩٤٨م .

– إغاثة الأمة بكشف الغمة – تحقيق / محمد مصطفى زيادة – القاهرة سنة ١٩٤٠م .

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار بولاق سنة ١٢٧٠هـ .

ابن منجب الصيرفى : (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على .

– الإشارة إلى من نال الوزارة (القاهرة سنة ١٩٣٤م) .

ابن ميسر :(ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٨م) محمد بن على بن يوسف بن جلب .

– أخبار مصر طبعة هنرى ماسيه القاهرة سنة ١٩٨٨م .

ياقوت الحموى :

– معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربى – بيروت .

ثانياً : المراجع الأجنبية :

- Bury, J.B. Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenas English Historical. Review Vol, IV (1889).
- Cambridge Madiaeval History. Vol, IV.
- Diehl (C.), Marcais (G): Le mond oriental de 395 a 1081 (Hist, du Moyen Age. Tome 3).
- Hittie (philip): History of Syria.
- Lane Poole (Stanley): A History of Egypt in the Middle Ages. (London 1901).
- Ostrogorsky: History of the Byzantine state. (Oxford 1956)

- Runciman: Byzantine Civilizatio.
- Tout (T.F.): The Empire and the papacy
(London 1924)
- Vasiliev (A.A.): Histoire de I'Empire Byzantine Tom i.
(Paris 1932)
- Wiet (Gaston): Histoire de la nation Egyptienne 7 Vols Paris 1931-1940

فهرس

تم بحمد الله

رقم الإيداع ٨١٨٣ / ١٩٩٦
I. S. B. N. 977-05-1467-5

المطبعة الإسلامية الحديثة
٤٢ ش دار السعادة - حلمية الزيتون
القاهرة - ت : ٢٤٠٨٥٥٨